أثر بناء الجملة القرآنية في تحصين المعنى

أ.م.د.طلال يحيى إبراهيم الطوبجي*

تأريخ التقديم: ٢٠٠٩/١١/١٩ تأريخ القبول: ٢٠٠٩/١٢/٣٠

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله ، وبعد :

فلا يخفى أنّ جوهر عملية التواصل بين المرسِل والمتلقي يقوم على فهم معنى الرسالة اللغوية واستيعابه ، فإذا استغلق على المتلقي فهم المعنى الذي يرمي إليه المُرسِل فإنّ الرسالة اللغوية ستفقد جانبا كبيرا من وظيفتها ، وستكون ــ في الغالب ــ أصواتاً ملفوظة لا طائل تحتها، وهذا ما أوضحه الجاحظ (ت٢٥٥هـ) بقوله: إنّ «مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنّما هو الفَهْمُ والإفهام»(١) ، وبالمثل ستفقد الرسالة جانبا من وظيفتها إذا تعرّض مضمونها للاحتمال أو الغموض غير المقصود في المواطن التي تستدعي الإيضاح والمباشرة؛ لذلك لجأت العربية إلى وسائل عدّة لتحصين المعنى، باستبعاد عوارض الاحتمال والغموض .

وتحصين معنى الجملة هو الاحتياط للمعنى بإزالة الغموض ودفع اللبس والاحتراز عن سوء الفهم، فهو من سمات النص المتأتية عن تركيب المفردات، أي : هو تجنب الغموض التركيبي، وعليه فهو أوسع من إزالة الغموض المتعلق بالوحدة اللغوية بسبب إحدى مشكلات الدلالة.

ودراسة المعنى على نطاق الجمل والتراكيب (Syntaetic Semantic) أمر قد عرفه العرب منذ ما يناهز اثني عشر قرنا، حينما بحث الأصوليون عن دلالات التراكيب القرآنية وما تؤديه من معنى، فضلاً عن جهد المفسرين والنحاة والبلاغيين والنقاد في الموضوع، مما لا مجال للخوض فيه في هذا المقام، وعليه فإن تفسير

* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ (ت٢٥٥هـ) ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٨٥ : ٧٦/١.

الغموض الدلالي ــ التركيبي الذي تفخر النظرية التوليدية التحويلية بمعالجته، من خلال ردّ البنية السطحية إلى البنية العميقة(١)، هو أمر قد عرفته العربية، ووضعت له من المعالجات الناجعة ما يبدده بطرائق مختلفة وأساليب متباينة، إلاَّ أن عناية أسلافنا بالجوانب التطبيقية في الدراسات اللغوية كان أكثر من عنايتهم بالجوانب التنظيرية ــ وهذا حسب وجهة نظرنا انعكاس لمنهج الأمة الإسلامية في جميع أمورها آنذاك ــ ولذلك بقي الموضوع في نطاق الإطار التطبيقي غالبا.

تحصين المعنى في الاستعمال القرآني :

نظرا لخطورة موضوع المعنى وجوهريته في الفكر الإسلامي نرى القرآن الكريم يحصن المعنى الذي يرمي إليه من عوارض الاحتمال وسوء التأويل ، وذلك في آياته المحكمات ، أما المتشابهات فلها حكمها الخاص الذي يخرج عن نطاق هذا البحث.

وقد انتقينا لبحثنا هذا جانبا من جوانب الموضوع، هو: اثر تحصين المعنى في بناء الجملة القرآنية، واضعين في حسابنا خطورة التعامل مع النص القرآني أولا، وعدم تحميل النص فوق ما يحتمل ثانياً.

وقبل الولوج إلى الموضوع نشير إلى ثلاث مسائل على جانب بليغ من الأهمية في هذا الصدد، أولاها : اثر التنغيم في دلالة الجملة : إذ يسهم التنغيم بدور فعال في تحصين المعنى من خلال دفع الغموض النحوي التركيبي، ولكن هذا الدور لا يُلمس إلاّ في الكلام المنطوق، وتبقى الحاجة ماسّة إليه في الكلام المكتوب؛ لذلك تكفّلت علامات الترقيم في الكتابة المعاصرة بسد قسط كبير من الفراغ الذي يخلفه غياب التنغيم عن النص المكتوب، وأمّا في النص العربي المكتوب فقد نهضت المكملات ولاسيما الحال ــ مفردا وجملة ــ بالدور الذي تؤديه علامات الترقيم ــ في الغالب ــ فيقال : قال فلان متعجبا، أو: مُستفهما، أو: مستهزئا، أو: وهو غاضب، أو: وهو يبتسم...، وهذا ما نلمسه في الاستعمال القرآني أيضا ففي قوله تعالى :﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ

(١) ينظر : العربية والغموض دراسة لغوية في دلالة المبنى على المعنى ، د.حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ــ مصر ، ط١ ، ١٩٨٨ :٨ ، ٢١٣.

أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (النمل:١٩) نرى أنّ الحال المؤكدة (ضاحكا) قد دفعت توهم غير المقصود من دلالة التبسم؛ لأنه ربما يكون التبسم عن غضب أو استهزاء[١]، فحصنت الحال ــ هنا ــ المعنى، إذ بينت أنّ تبسم سيدنا سليمان (عليه السلام) كان فرحا وسرورا بنعم الله التي أسبغها عليه، ودفعت المعاني الأخرى التي قد يجر إليها سوء التأويل.

وأمّا المسالة الثانية فهي: دور قرينة الحال في تحصين المعنى ، إذ قد تسهم هذه القرينة في تحديد المقصود من الرسالة اللغوية، وفي دفع اللبس أو التوهم في فهم المعنى، فإذا قلنا : (هذا قلم ازرق اللون)، فإنّ الجملة تحتمل معنيين ، أولهما أنّ لون القلم الظاهري ازرق، والآخر: أنّ مداد القلم ازرق، فإنْ كان لون القلم الظاهري مخالفا للزرقة، عُلِمَ بقرينة الحال أنّ المقصود من الكلام هنا هو بيان لون المداد، ولكن إنْ كان اللون الظاهري ازرق، فهنا لا تساعدنا قرينة الحال على توضيح المقصود، فيتحتم على المرسِل أنْ يحصن المعنى الذي يرمي إيصاله إلى المتلقي، إذ لا تنهض قرينة الحال هنا في دفع اللبس، وكذلك يسهم سبب نزول الآية بوصفه قرينة حالية في فهم المراد من الآية، وفي تحصين المعنى من خلال إلقاء الضوء على ظروف نزول النص الكريم وملابساته، وإنْ كانت العبرة ــ كما يقول الأصوليون ــ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فإذا وقفنا عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التغابن:١٤) فسيعيننا سبب النزول في بيان مفهوم العداوة التي أشارت إليها الآية، وهي العداوة في الدين، سواء أخذنا بالرواية التي تعزو سبب نزول الآية إلى تخلف عدد من المسلمين عن الهجرة مع الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم لما هاجروا بعدئذٍ وجدوا أنّ مَنْ سبقهم بالهجرة قد فقه في الدين وألمّ بتعاليمه ، فلما هموا بمعاقبة أهليهم نزلت الآية[٢]، أم بالرواية الأخرى

---

(١) البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) ، تحقيق : عادل عبدالموجود ، وعلي معوض ، بمشاركة د.زكريا النوتي ، ود.احمد كمال ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٧: ٦١/٧.

(٢) ينظر: أسباب النزول، الواحدي (ت٤٦٨هـ)، تحقيق : محمد محمد تامر، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط١،(د.ت): ٢١٠، وأسباب النزول، السيوطي (ت٩١١هـ)، مطبوع مع كتاب الواحدي: ١٩٦.

التي تعزو السبب إلى عوف بن مالك الاشجعي، الذي كان يرق لبكاء أهله وولده ، فيتخلف عن الجهاد[1].

ويلحظ أن سبب النزول قد تواشج مع بناء الجملة في تحصين المعنى ، إذ اقترن خبر (إنّ) الذي هو: (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) بـ(من) التبعيضية[2]، للدلالة على أنّ العداوة ليست مطلقة، بل هي مخصوصة بأناس معينين لم يكونوا عونا لأرباب أسرهم على طاعة الله.

ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى دور السياق في تحصين المعنى ، فإذا نظرنا في الآية التي تتلو الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (التغابن:١٥) فسنلحظ أن الجملة الأولى: (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) وردت مؤكدة بأسلوب القصر، وقد خلا بناؤها من استعمال (مِنْ) التبعيضية التي وُظّفت في بناء الجملة التي تتكلم على العداوة في الآية السابقة، وذلك ــ والله اعلم ــ للدلالة على أن العداوة في الدين لا تشمل جميع الأزواج والأولاد، ولكن الفتنة ــ بمعنى الاختبار ــ تكون شاملة للجميع ، بدليل استعمال أسلوب القصر الادعائي، والعدول عن استعمال اسم الفاعل إلى التعبير بالمصدر (فتنة) للمبالغة.

وأمّا المسالة الأخيرة التي قصدنا التنبيه عليها فهي دور المبالغة في تحصين المعنى من سوء التأويل، وهذا ما يبدو ــ مثلا ــ في طائفة من الآيات التي نفى فيها القران الكريم عن المعرضين عن هديه القويم السمع والبصر، بوصفهما ابرز منافذ الإدراك لدى الإنسان، ولاسيما حاسة السمع، إذ نقرأ ــ مثلا ــ قوله تعالى :﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:١٧١)، وقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(الأعراف:١٧٩)، وقوله تعالى: ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾(فصلت:٤)، فكثرة المعرضين لا تعني مطلقاً

(١) ينظر : أسباب النزول ، السيوطي : ١٩٦.
(٢) ينظر : البحر المحيط : ٢٧٥/٨.

وجود خلل في الرسالة أو مُبَلّغها ــ حاشا لله ولرسوله (ﷺ) من ذلك ــ وإنّما الخلــل فــي هذا الصنف من المتلقين الذين لم يحسنوا استعمال العقل ومنافــذ الإدراك فيمــا يــنفعهم، وليس القصد من نفي السمع هو نفي عملية السمع الفسيولوجية، بل المقصود ــ كمــا هــو واضح ــ بيان عزوفهم عن الانتفاع بما يسمعون ، فكأنهم لم يسمعوه مطلقــا، اذ عطلــوا السمع عن وظيفته فنفاه الله سبحانه وتعالى عنهم بالكلية ، مبالغة في تــصوير المقــصود، وتحصينا للمعنى من سوء التأويل.

المظاهر التركيبية لتحصين المعنى :

سلك القرآن الكريم طرائق كثيرة لتحصين المعنى ، يمكــن تكثيفهــا بالمظــاهر التركيبية التي سنبينها ، آخذين بالاعتبار الانطلاق من الجزء إلى الكل، أي : من مكونات الجملة إلى علاقة الجملة مجتمعة بسياقها.

١ــ العدول عن صيغة إلى أخرى :

يندر أن يقع الغموض بسبب من صيغة الكلمة ــ كما يرى (تيررنــر)[(١)] ــــ إلاّ بسبب أحد مشكلات الدلالة، أو الاستعمال المجازي للصيغة، بل إنّ العدول عن صيغة إلى أخرى قد يسهم أحيانا في تحصين المعنى وتثبيته وإيضاحه، فضلاً عمّا يحققه هذا العدول من إيجاز بديع في التعبير، ولا ريب أنّ ذلك لا يتأتى إلاّ من وظيفة الصيغة داخل الجملة.

وهذا ما يلحظ في شواهد قرآنية كثيرة، منها قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ ﴾(البقرة: ٢٨٢) إذ عدل الاستعمال القرآني عن صــيغة (شــاهدين) إلــى (شهيدين) للدلالة على استشهاد من تمرس في الشهادة، «وكأنهم أمروا بأن يستشهدوا مــن كَثُرَتْ منه الشهادة، فهو عالم بمواقع الشهادة، وما يشهد فيه، لتكرار ذلــك منــه، فــأمروا

---

(١) العربية والغموض:٤٠.

بطلب الأكمل»[1]، وهذا ما حققه العدول المذكور عن صيغة اسم الفاعل إلى صيغة مبالغة اسم الفاعل ، لتحصين المعنى باختيار الأكمل . ومما يعزز ما سبق أن الاستعمال القرآني الكريم آثر توظيف اسم الفاعل (شاهد) في أكثر من موطن، حينما اقتضى السياق عدم العدول إلى صيغة المبالغة ، كقوله تعالى :﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (يوسف: ٢٦)، وقوله تعالى:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الاحقاف: ١٠)، وبالمثل لو وقفنا عند قوله تعالى:﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف: من الآية١١٠) فسنلحظ أنّ الاستعمال القرآني عدل عن صيغة الفعل الماضي المجرد (يئس) إلى الصيغة المزيدة (اسْتَفْعَل) التي تفيد المبالغة والتوكيد في هذا السياق، وما ذاك إلاّ احتياط للمعنى، إذ ان (استيأسوا) تعني أنهم «يئسوا من النصر يأسا عظيما، كأنهم أوجدوه، أو طلبوه واستجلبوه من أنفسهم»[2]، فالرسل (عليهم سلام الله) لم ييأسوا عند أول صدمة أو مواجهة، بل كان لهم من المطاولة والصبر ما يليق بحالهم، وباختيارهم المبارك لتبليغ دعوة الله سبحانه وتعالى لخلقه، فكان العدول إلى هذه الصيغة تعبيرا عن مصابرتهم، حتى لا يظن ظانّ أن اليأس قد غلبهم منذ الجولة الأولى مع الباطل وأهله، ومما يعزز هذا أن الاستعمال القرآني وظف الفعل مجردا حينما لم يقتضِ السياق العدول عنه إلى الصيغة المزيدة، كما في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(المائدة:٣)، وقوله

(١) البحر المحيط : ٣٦١/٢.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، برهان الدين البقاعي (ت٨٨٥هـ) ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ط١ ، ١٩٧٦ : ٢٥٤/١٠.

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴾ (الممتحنة: ١٣) .

وبالمثل نلحظ أنّ الاستعمال القرآني قد يعدل عن المصدر الصريح إلى التعبير بالمصدر المؤول، وبين الاستعمالين فروق تعبيرية بيّنها النحاة[١]، وما يعنينا هنا ما ذكره السهيلي (ت٥٨١هـ) من أن المصدر المؤول يدل على مجرد الحدث، من دون احتمال معنى زائد عليه، ففيه تحصين للمعنى من الإشكال، وتخليص له من شوائب الاحتمال ، فإذا قيل: (أعجبني قدومك) احتمل الكلام معاني منها: أن يكون القدوم نفسه هو المعجب، أو ان الإعجاب وقع من حالة من حالاته، فان قيل: (أعجبني أن قدمت)، كانت (أنْ) على الفعل بمنزلة الطابع والعنوان من عوارض الاحتمالات المتصورة في الأذهان[٢].

والشواهد القرآنية على هذه المسالة عديدة، ففي قوله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٢) نلحظ أن الآية تحث على الجهاد وعلى الصبر على تبعاته؛ لذلك « فمن البعيد أن يصل الإنسان إلى السعادة والجنة مع إهمال هذه الطاعة»[٣]؛ لذا فالتعبير بالمصدر المؤول في الآية فيه تحصين للمعنى للدلالة على مطلق الدخول من دون تحديد لحالة معينة . ودخول الجنة ـــ كما دلت على ذلك السنة النبوية المشرفة في عدة أحاديث ـــ قد يكون بغير حساب ، أو بعد الحساب، وقد يكون من باب الريان أو من غيره من أبواب الجنة ، فكان التعبير بالمصدر المؤول لتحصين المعنى من عوارض الاحتمال، سواء قلنا إنّ المصدر المؤول

(١) ينظر : الأشباه والنظائر في النحو ، السيوطي (ت٩١١هـ) ، تحقيق : محمد الفاضلي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٦ : ٢/٢٢٦ـ٢٢٩.

(٢) ينظر : نتائج الفكر في النحو ، السهيلي (ت٥٨١هـ) ، تحقيق : محمد ابراهيم البنا ، منشورات جامعة قار يونس ـــ ليبيا : ١٢٦.

(٣) التفسير الكبير ، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) ، دار الكتب العلمية ، طهران ، ط٢ ، (د.ت) : ٩/١٩.

سدّ مسدّ مفعولي الفعل (حسب)، أم انه مفعول به أول، وان المفعول الثاني محذوف تقديره : حسبتم دخولكم الجنة حاصلاً .

٢ــ وضع الاسم الظاهر موضع الضمير :

يعد العدول عن استعمال الضمير إلى الاسم الظاهر خلافا للأصل، وخروجا عن مقتضى الظاهر، ولكن هذا العدول لا يكون إلاّ لسبب معنوي وبلاغي تقتـضيه البلاغـة القرآنية المعجزة ؛ ولهذا لا نرى السيوطي (ت٩١١هــ) مجانباً للصواب حين قال: « لما كانت الألفاظ تابعة للمعاني لم يتحتم الإضمار، بل قد يكون التصريح أولى، بل ربما يصل إلى حد الوجوب»[١]، وهذا ما نلمسه في قوله تعالى :﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٢٢) إذ لم يقل سبحانه: (وصدقا)، تجنبا من أنْ يكون الضمير الواحد عائدا إلى الله سبحانه وتعالى ثم إلى غيره من المخلوقات، وهذا من دقائق تحصين المعنى في موضوع العقيـدة الـذي يتـسم بالخطورة الشديدة، إذ هو المحور الأساسي في الفكر الإسلامي الذي لا يقبل أيـة شـائبة تخدشه .

وقد يكون تحصين المعنى بتعليق الحكم بالدلالة الوصفية للاسم الظاهر ، كما في قوله تعـالى : قَالَ تَعَالَى:أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة:٢٢٢) ، إذ اكتسبت كلمة (المحيض) الدلالة الوصـفية من خلال السياق ، فدلالة قوله تعالى : (فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ) هـي : اعتزلـوا النساء الحوائض، وقد عدل الاستعمال القرآني عن الضمير ، فلم يرد : (فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِيهِ) ، تعليقا لحكم الاعتزال بالحيض نفسه، وتحصينا للمعنى من سوء التأويل ، ليتجنـب المسلمون ما وقع فيه اليهود من مطلق الاعتزال، وقد أوضحت السنة النبوية المطهرة هذه

(١) الأشباه والنظائر في النحو : ١١٨/٤.

المسألة ــ زيادة في الكشف والبيان ــ فقال الرسول (ﷺ) : «جــامعوهن فــي البيــوت، واصنعوا كل شيء غير النكاح»[1].

وبالمثل نلحظ العدول إلى الاسم الظاهر في قوله تعــالى:﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٣) فلم يؤثر القران الكريم استعمال الضمير ، إذ لم يقل: (فَأْتُوهن أَنَّى شِــئْتُمْ) ؛ لأنّ الأداة (أنّــى) مشتركة معنويا في الدلالة على الحال أو المكان أو الزمان ، فكان الاستعمال القرآني أراد أن يبعد سوء التأويل الذي قد يتأتى من فهم مطلق الدلالة على المكان ، فاظهر الاسم لتأكيد أن المقصد هو مكان الحرث ، وان تباينت الهيئات والأحوال . علما إن هذا المعنى مفهوم من صدر الآية (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ) ، ولكن ازداد الأمر تأكيــدا بإعــادة الاســم الظــاهر احترازا وتحصينا للمعنى.

٣ــ تقديم بعض مكونات الجملة :

لا يتكون معنى الجملة من مجموع المعاني المعجمية لمفرداتها فحسب، بل هــو مزيج لا ينفصم من تفاعل المستويات اللغوية كافة ، محكوما بالــسياق والقــرائن، وهــذا يقتضي أن يكون الترابط وثيقا بين معنى الجملة وطريقة تركيبها ؛ لذا فان كل مــا يطــرأ على المعنى من عوارض دلالية ينعكس حتما على طريقة بنائها، وهذا ما نلحظه ــ مــثلا ــ في آيتين فيهما تشابه في المفردات مع اختلاف في البناء لاختلاف الموقف ، ففي قولــه تعالى في قصة موسى (عليه السلام) :﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (القصص: ٢٠) نلحظ أنّ المسند إليه ورد فــي موقعه المعهود في بنية الجملة ، ليكتسب أهميته من وظيفته النحوية في تركيب الكلام .

وأمّا في قوله تعالى في قصة أصــحاب القريــة التــي أرســل فيهــا ثلاثــة مرسلين:﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (يّــس: ٢٠) فالمسند إليه لم يحتفظ بموقعه في الجملة ، إذ تقدم عليه قوله تعالى : (مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ) ؛

---

(١) سنن أبي داود ، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الازدي (ت٢٧٥هــ) ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٠٨هــ ــ ١٩٨٨م ، (د.ط) : رقم الحديث ٢٥٨ : ٦٦/١.

لإبراز أهمية المكان في مجرى الحدث ، فحاكى بناء الجملة هذا المقصد تحصينا للمعنى ، بقصد بيان أن دعوة الرسل عليهم السلام لم يشبها قصور في التبليغ ـ حاشاهم ـ إذ بلغت دعوتهم إلى من سكن أقصى المدينة، فكيف بمن هو دون ذلك ؟! فأصبح أهل المدينة جميعا على بيّنة من أمرهم ، لذا فهم وحدهم يتحملون مسؤولية اختيارهم.هذا فضلا عن أنّ في هذا التقديم للمكان بيانا لمكانة الرجل، إذ تحمّل عناء المكان ليبلّغ الناس، فدلّ ذلك على قوة إيمانه، خلاف أهل المدينة القريبين من الرسل (عليهم السلام) ولكنهم كانوا معرضين.

ومما لفت نظر الباحث في هذه المسالة : موقع المسند إليه مع الفعل (يريد) ، فحينما يرد هذا الفعل مسندا إلى لفظ الجلالة، من دون استعماله مرة أخرى مسندا إلى مزيد آخر في الكلام، فان المسند إليه (لفظ الجلالة) يحتفظ بموقعه في الجملة، كقوله تعالى[1] :﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٥) ، ولكن حين يتكرر استعمال الفعل في الكلام مسنداً إلى مزيد آخر فان الاستعمال القرآني يعدل عن البناء التقليدي للجملة ، فيقدم لفظ الجلالة على الفعل (يريد) ، في حين يبقى الفعل الآخر مسنداً إلى فاعله على الطريقة المألوفة ، كما في قوله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٢٧)، وقوله تعالى :﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٧)، فتقديم المسند إليه يعني أن التركيز منصب عليه، فأفاد التقديم التحقيق لمقصد الفاعلية، فضلا عن التفخيم المتأتي من الشحنة الوجدانية والعاطفية التي يحققها وقع لفظ الجلالة على النفس، وقد حقق هذا البناء تحصينا للمعنى ، حتى لا يظن ظان أن المقابلة بين الفعلين تعني أن الإرادة الإلهية مقابلة

(١) ويلحظ مثلا : (آل عمران : ١٧٦ ، النساء : ٢٦ ، النساء : ٢٨ ، الانفال : ٧)

لإرادة المخلوقين ــ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـــ إذ الإرادة الحقيقية هي الإرادة الإلهية، وأما ما عداها ــ إنْ خالفها ــ فهو تسويل وإيهام.

ونلحظ الصياغة التركيبية في مداها المعجز أيضاً في آيتين من سورتين من سور المفصّل ، يؤدي التقديم في إحداهما معنًى يحرص القرآن الكريم على تثبيته في أذهان متّبعي هديه ، وهو : تفاوت درجات المتّبعين بتفاوت مقدار التزامهم ، فهناك السابقون السابقون، ثم أصحاب اليمين(١)، وبالمثل : لا يستوي مَنْ انفق قبل الفتح وقاتل مع من انفق من بعد وقاتل(٢)، وهكذا تتفاوت الدرجات وتتباين المقامات .

وأما الآيتان اللتان نلمس فيهما هذا المفهوم فهما قوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [التحريم :٨]، وقوله تعالى :﴿ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [الحديد :١٢]، فتقديم المسند إليه في الآية الأولى (نورهم يسعى) فيه إشارة إلى السابقين ، وعلو مكانتهم فهم في معيّة النبي (ﷺ)، في حين ورد المسند إليه في موضعه الأصلي من الجملة عند وصف عموم المؤمنين والمؤمنات، فقال تعالى : (يسعى نورهم)، وما ذاك إلاّ تحصين للمعنى، حتى لا يظن ظانّ أنّ المؤمنين جميعهم متساوون في الجزاء.

ومثلما يدل بالتقديم على تحصين المعنى فان الحفاظ على أصل التركيب فيه تحصين للمعنى ــ أيضا ــ من التغير الدلالي الذي ينشا عن تقديم أي جزء من مكونات الجملة ، سواء احتفظ بوظيفته النحوية في أثناء التغيير الموقعي أم لم يحتفظ، فإذا تأملنا قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ (غافر: من الآية٢٨) نجد أن أوصاف الرجل قد تدرجت من المفرد إلى شبه الجملة انتهاء بالجملة، ذلك أن المفرد

(١) ينظر : سورة الواقعة : ٨ ــ١٠.

(٢) ينظر : سورة الحديد : ١٠.

هو الأصل، والجملة فرع، وشبه الجملة هو الوسط بينهما، فتوَسَطُهما، ولو تــأخر عــن موضعه لتعلق بالفعل (يكتم)، فيكون المعنى: يكتم إيمانه من آل فرعون .

وفي هذا تفويت للمقصود من الكلام الذي يدل عليه السياق، وهو كــون هــذا الرجل من آل فرعون، إذ إنه «لم يكن لأحد من بني إسرائيل أن يتجاسر عند فرعــون بمثل ما تكلم به هذا الرجل »[1]، فضلاً عن انه لا يقال : كتمت من فــلان كــذا، إنّمــا يقال: كتمت فلانا كذا، فالفعل يتعدى بنفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَــدِيثاً﴾ (النساء: ٤٢)[2].

والمجيء على أصل التركيب هو الأساس في أداء المعنى ، فلا يحتاج إلى كثيــر استدلال، ولكن سيعرض البحث لشاهد قرآني آخر زيادة في الإيضاح، فلو وقفنا عند قوله تعــالى :﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (لقمان: ١٤) فسنلحظ أن جملة (وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) جــاءت علــى أصل التركيب بتقديم المبتدأ وتأخير الخبر (الجارّ والمجرور)، والمعنــى: وفــصاله فــي انقضاء عامين . وفي هذا تحصين للمعنى؛ لأنه لو قُدِّم الخبر لأفاد الحصر، فــلا يكــون فصالٌ قبل العامين ، في حين أنّ انقضاء العامين هي المدة الأمثل، ولكنها ليــست ملزمــة للوالدين ، سواء أكانت الزوجة مطلقة أم في عصمة الزوج ، إذ قــال تعــالى:﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٣٣)

وفضلا عن ذلك فإنّ مجيء التركيب على الأصل يدفع ما قد يُفهم من سوء التأويل لقولــه تعالى:﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ

(١) البحر المحيط : ٤٤١/٧.

(٢) ينظر : التفسير الكبير : ٥٧/٢٧ ، والبحر المحيط :٤٤١/٧.

أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (الاحقاف: ١٥) ، إذ لو قُدّم الخبر في آية سورة لقمان لأفاد الحصر ــ كما أسلفنا ــ ولَفُهِمَ من آية الاحقاف هذه أنّ مدّة الحمل الطبيعية هي ستة أشهر، في حين أنّها المدة الصغرى للحمل . فسبحان ربّ العــزّة القائــل :﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء:٨٢) .

٤ــ التوسع في بناء الجملة :

يعدُّ التوسع في بناء الجملة من أبرز مظاهر الاحتياط للمعنى ، وقد سلك هذا التوسع عــدّة طرائق هي :

أ ــ التوسع بزيادة أداة : قد تُزاد بعض الأدوات إلى تركيب الجملة بقصد تحصين المعنى ، أو دفع سوء التأويل ، وقد تكون هذه الزيادة واردة في لهجة لــبعض القبائــل العربيــة ، ولكن الاستعمال القرآني يؤثر توظيفها في موطن مخصوص لغرض مقــصود . فمــثلاً في قوله تعالى حكاية عن بني إسرائيل:﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾(المائدة: ٧١)، آثر الاستعمال القرآني لغة قبيلة طيء والقبائل اليمانية التي تمت لها بصلة كقبيلة (بلحارث بــن كعــب) و(أزد شنوءة) في الحاق علامة التثنية أو الجمع بالفعل مع وجود الفاعــل الأصــلي فــي الجملة ، «حرصا على البيان وتوكيدا للمعنى »[(١)]، وذلك في قوله تعــالى : (ثُــمَّ عَمُــوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ)(المائدة: ٧١)؛ والسبب في ذلك ــ والله اعلم ـــ هــو بيــان كثــرة المعرضين ، فكأنّ الجميع قد تلبّسوا بــالعمى والــصمم عــن آيــات الله البيّنــات، إذ إنّ المستجيبين قد بلغوا من القلّة مبلغاً لا يكاد يُذكر قياساً بالمعرضين، ثــم اســتثنى القــرآن الكريم هؤلاء المستجيبين لبيان فضلهم ومزيتهم، وللتنويه بهم، وذلك بدلالة قولــه تعــالى: (كثير منهم) .

لقد عدل الاستعمال القرآني عن تركيب: (عمى وصمّ كثيــر مــنهم) ؛ لأن لفــظ الكثرة لفظ نسبيّ، قــد لا يوضــح مقــدار المعرضــين، وكــذلك عــدل عــن تركيــب

---

(١) نتائج الفكر : ١٦٦.

(عموا وصموا) بالاستغناء عن لفظ (كثير)؛ لأن فيه تفويتاً للمقصود من التنويه بشأن المستجيبين على قلّتهم، فكان الجمع بين الفاعل الظاهر وعلامته تحصيناً للمعنى بدفع الاحتمالين غير المطلوبين.

وقد يكون تحصين المعنى باستعمال الواو الرغمية، وهي الواو التي تصاحب عبارة شرطية قيدية مصدّرة بأداة شرط جازمة أو غير جازمة، وتقع هذه العبارة بعد جملة تامة المعنى[1]، والوظيفة الأساسية لهذه الواو هي تحصين المعنى، وهذا ما يُلحظ في أكثر من آية قرآنية كقوله تعالى:﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الاسراء:٨٨)، إذ لو لم تُذكر الواو الرغمية في قوله تعالى:(وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) لفُهم أنّ عجزهم مشروط بكون بعضهم لبعض ظهيرا ، ولو لم يكن الأمر كذلك لأمكنتهم المعارضة، وهذا باطل بدلالة الواقع ، فجيء بالواو لدفع توهم هذا المعنى .

وبالمثل دفعت هذه الواو توهم المعنى غير المطلوب من قوله تعالى:﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ (الكهف:١٠٩) فلو لم تُذكر الواو لفُهم أنّ نفاد البحر مشروط بمجيء مثله مدداً ، والأمر ليس كذلك.

ويوظف القرآن الكريم معطيات التركيب اللغوي في تحصين المعنى وأمن اللبس ، كما في إلحاق اللام الفارقة[2] في خبر (إنْ) المخففة أو في معموله؛ تمييزا لها من (إنْ) النافية. ولم يكتفِ الاستعمال القرآني بدلالة السياق في الاستغناء عن اللام ، وهو ما يجيزه

---

(١) ينظر : بحث : لا يأتون بمثله : محمد إسماعيل عتوك ، شبكة الانترنيت موقع أسرار الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

(٢) ذهب جمهور النحاة إلى أن هذه اللام هي لام الابتداء ، وخالفهم في ذلك أبو علي الفارسي ومن وافقه ، إذ روى عنه تلميذه ابن جنّي أنه قال له يوماً : ظننتُ أنّ فلاناً نحويّ مُحسن ، حتى سمعته يقول : إن اللام التي تصحب (إنْ) الخفيفة هي لام الابتداء والظاهر أن ما ذهب إليه الفارسي هو الراجح ؛ لدخول هذه اللام على الفعل الماضي المتصرف ، وعلى معمول الفعل المتأخر عن عامله . ينظر : مغني اللبيب عن كتب الاعاريب، ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) ، تحقيق: د.مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله ، ط٢ ، دار الفكر ، د.ت :٢٥٦/١، وشرح التصريح على التوضيح ، خالد الازهري (ت٩٠٥هـ) ، تحقيق : احمد السيد سيد احمد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، د.ت : ١٢٨/٢.

الاستعمال اللغوي[١]، بل زادها ؛ توكيداً وتحصيناً للمعنى، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[البقرة:١٤٣]، وقوله تعالى:﴿ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴾[الأعراف:١٠٢].

ومن هذا الباب أيضاً استعمال (بل) مفيدة الإضراب الابطالي ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴾[النساء:٤٩ـ٥٠]، فالكلام في إبطال ادعاءات اليهود العريضة الفارغة في أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لن يدخل الجنة إلاّ من كان يهودياً ، وأنه لن تمسهم النار إلاّ أياماً معدودات ، فهذه التزكية لا قيمة لها، فالمزكي هو الله سبحانه وتعالى ، وهؤلاء لا حظَّ لهم في التزكية الإلهية . ويلحظ أنه لو لم تُذكر (بل)، فقيل: (الله يزكي من يشاء) «لكان لهم مطمع أن يكونوا ممّن زكاه الله تعالى»[٢] ، فاحتاط القرآن للمعنى المقصود وحصّنه بتصدير جملة الرّد عليهم بـ(بل) مفيدة الإضراب الابطالي، ليقطع ما قد يتبادر إلى أذهانهم من أن تزكيتهم أنفسهم قد توافق التزكية الإلهية فيصدق قولهم.

وبالمثل نلحظ أن الاستعمال القرآني قد يؤثر زيادة حرف الجر (مِنْ) قبل منفي (ما) إذا كان نكرة، وذلك لإفادة التوكيد واستغراق النفي، وفي هذا تحصين للمعنى؛ إذ إنّ استغراق النفي ابلغ من نفي الجنس؛ لأن الأخير يحتمل نفي مفرده اللفظي أو جنسه المعنوي، وأمّا استغراق النفي فيكون لنفي الجنس بالكلية فقط، ولهذا نلحظ أن دعوة الرسل جميعاً عليهم صلوات الله وسلامه كانت﴿ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [الأعراف:٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ ، هود : ٥٠ ،

(١) ينظر : شرح التصريح على التوضيح : ١٢٤/٢ ــ ١٢٥.
(٢) التحرير والتنوير : ١٥٤/٤.

٦١ ، ٨٤ ، المؤمنون : ٢٣ ، ٣٢] لإثبات الإلوهية لله وحده، ونفيها مطلقاً وبالكلية عمّن سواه سبحانه.

ب ــ التوسع بزيادة كلمة أو تركيب :

قد يحصّن الاستعمال القرآني المعنى بزيادة كلمة واحدة إلى الجملة ، يحترز بها عن سوء التأويل، إذ قد يقيّد لفظاً مطلقاً بوصف معين لصيانة المعنى ، وهذا ما نراه مثلا في قوله تعالى:﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾[النحل:٦٧] إذ وصف الرزق بالحسن ، حتى لا يُفهم من عطف الرزق على السكر مطلق المشاركة ، وفي الآية ــ وهي مكية نزلت قبل تحريم الخمر ــ إشارة إلى اجتناب الخمر ، إذ «إنه تعالى نبّه في هذه الآية ... على تحريمها وذلك لأنه ميّز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر ، فوجب أن لا يكون السكر رزقاً حسناً»(١).

وأمّا تحصين المعنى بزيادة تركيب ما، فيدخل فيه جانب مما بحثه البلاغيون ومصنفو كتب معاني القرآن في باب الاحتراس، الذي عرّفه الزركشي (ت٧٩٤هـ) : بأنه «أن يكون الكلام محتملاً لشيء بعيد [يقصد: معنىً بعيداً] ، فيُؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال»(٢)، ويدخل فيه أيضاً جانب ممّا بحثه الأصوليون في باب تقييد المطلق . فمثال الاحتراس بزيادة تركيب ما ورد في قوله تعالى :﴿ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [آل عمران:١٣] فجيء بالتركيب الإضافي (رأي العين) للاحتراز عن كون هذه الرؤية تخميناً أو تهيؤاً، بل هي رؤية مؤكدة، لا يشوبها غبش، وأنه «لتمكن ذلك في اعتقادهم شُبّه برؤية العين»(٣).

---

(١) التفسير الكبير : ٦٨/٢٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي (ت٧٩٤هـ) ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط٢ ، دار المعرفة ــ بيروت ، د.ت : ٦٤/٣.

(٣) البحر المحيط : ٤١٢/٢.

وأمّا تحصين المعنى بالتقييد فشاهده قوله تعالى:﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المجادلة:٤] فقُيّد الصيام بالتتابع في كفّارة الظّهار، وذلك لمن لم يستطع تحرير رقبة، ثم قُيّد الصيام بقيد آخر احترازاً وتحصيناً للمعنى، وهو كون الصيام المتتابع قبل الاستمتاع بالزوجة المُظاهر منها، حتى لا يُفهم أن أداء الصوم متتابعاً يقتضي معيّة الاستمتاع، بل يتوقف ذلك على انتهاء مدّة الصيام.

جـ ــ التوسع بزيادة جملة :

أمَّا التوسع بزيادة جملة فيكون بالاحتراس أو الاعتراض أو التفسير ، وسنقف ــ إن شاء الله ــ عند شاهد واحد لكل قسم، فأمّا الاحتراس بالجملة فله شواهد كثيرة في كتاب الله تعالى منها قوله تعالى:﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون:١]، فجملة (والله يعلم إنّك لرسوله) المؤكدة بأكثر من مؤكد، إذ قُدّم فيها المسند إليه، وأُكدت جملة المفعول بـ(إنّ) واللام ــ احتراساً وتحصيناً للمعنى من سوء التأويل فيما إذا لم تُذكر هذه الجملة ، وقد حَسُنَ الاحتراس بها لدفع «توهم أنّ التكذيب للمشهود به في نفس الأمر»[1] في حين أنّ التكذيب متوجه إلى شهادتهم نفسها، التي نطق بها لسانهم وأنكرها جنانهم .

وليس الاعتراض بأقلّ شواهد من الاحتراس في كتاب الله تعالى، مع ملاحظة أنّ عدداً من المواضع تصلح شواهد للضربين، وستكون وقفتنا هنا عند قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٣ ــ ٢٤] إذ وقع الاعتراض بالجملة الفعلية المنفية نفي تأكيد : (ولن تفعلوا) في سياق التركيب الشرطي، وفي مقام التحدي والتعجيز عن معارضة القرآن الكريم .

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ٦٦/٣.

وقد صُدِّرت جملة الاعتراض بالأداة (لن) للدلالة على النفي المؤكد للمستقبل ، وقد أفاد هذا الاعتراض تحصين المعنى، إذ لو لم يُذكر لظنّ ظان أنّ الخطاب والتحدي مقصوران على المعاصرين للرسول (ﷺ)، فدفع هذا الاعتراض ذاك الظن ، كاشفاً أنّ التحدّيَ عامٌ يشمل البشر والجنّ جميعهم في كل زمان ومكان، مؤكداً إنسانية الخطاب القرآني، فضلا عن أنه من الغيب الذي اطلعنا عليه القرآن الكريم قبل وقوعه.

أمّا الجملة التفسيرية فوظيفتها في الأساس أن تفسّر ما يسبقها من كلام مجمل أو مشكل أو تساعد في تحديد المعنى المراد إيصاله للمتلقي بقصد استدامة عملية التوصيل، أو لتحاشي سوء فَهْمٍ أو تأويل قد يتبادر إلى الذهن . فهي في مجملها صياغة تعبيرية توضيحية جديدة لما سبقها من كلام.

وستكون وقفتنا عند قوله تعالى:﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[يونس :٢] ، إذ نلحظ أن الجملة التفسيرية وما عطف عليها : (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ)قد جاءت لتحصّن المعنى وتوضّحه، فالكافرون لم يقولوا مقولتهم الواهية:(قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ) لمجرّد أن أُوحي إلى الرسول (ﷺ)، فما هذا بضائرهم شيئاً، بل لأن هذا الإيحاء تضمّن تبليغاً عاماً فحواه البشارة للمؤمنين، والإنذار للمعرضين، وهذا الإنذار قد غمزهم في الصميم، وأقضَّ مضاجعهم، وسفّه أحلامهم، فأخذتهم العزّة بالإثم لذلك، مدفوعين بنقمة شديدة لتفضيل المؤمنين عليهم؛ لذلك تجرّأوا على هذا الادّعاء الواهي وغني عن البيان أن نقول إنّ هذا التفسير المحصّن للمعنى قد أدّى وظيفة دلالية كبيرة على صعيد التماسك النصّي، إذ ربط بين مطلع الآية وختامها.

٥ـ التغاير التركيبي والأسلوبي :

يشكل التغاير التركيبي والأسلوبي مَعْلَماً بارزاً في تحقيق تحصين المعنى ، وذلك بالعدول عن تركيب متوقع إلى ما يقابله ، بقصد الحوز على انتباه المتلقي ، بمنح جزءٍ من النّص زخماً تعبيرياً بوساطة تغيير الصيغة أو الحركة الإعرابية، فإذا

نظرنا في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[(١)] [غافر : ٦١] فسنلحظ أن الليل اقترن بالمفعول له : (لتسكنوا) ، في حين اقترن النهار بالحال: (مبصرا)، وقد دفع هـذا التغاير الزمخشري (ت٥٣٨هـ) إلى إثارة التساؤل عن سببه، ثم أجاب: بأنه «لو قيل : (لتبصروا فيه) فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي[(٢)]، ولو قيل :(ساكناً) ... لم تتميز الحقيقة من المجاز»[(٣)]، ويبدو أن هذا التعليل ليس كافياً، فالتعبير بالمفعول له مقصود هنا ؛ لبيان الفضل الإلهي والمنّة على الناس، وذلك بتوظيف الجملة الفعلية وإسناد السكون إلى الناس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى في التعبير ملمحاً اختيارياً بتوظيف الجملة الفعلية الدالة على التجدد والحدوث، فالسكون هو لأغلب الناس ، فهناك من يكون عمله في الليل ، فلا سكن له فيه، وهناك من يهدر ليله في إتلاف نفسه وصحته، فلا سكن له فيه على الحقيقة،... فكان التعبير بالمفعول له وبالصيغة الفعلية مقصوداً هنا، بدليل اقتران الليل بالمصدر (سكناً) في موضع آخر يباين هذا الموضع، إذ قال تعالى:﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام:٩٦] .

أمّا اقتران النهار بكلمة (مبصراً) ففيه ملمح إلزامي ثبوتي، فالنهار مبصر بنفسه، فهو مبصر للجميع، ولا أحد يستطيع أن يسلب هذا الوصف عنه، فعُبّر عنه لذلك بالصيغة الاسمية على طريق المجاز العقلي؛ إظهاراً للنعمة الإلهية، ولهذا عقب سبحانه وتعالى ذكر هاتين النعمتين بقوله سبحانه :﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [غافر : ٦١].

---

(١) وردت هذه الآية في سورة يونس أيضا ، الآية :٦٧، ولكنها صُدّرت بالضمير (هو) بدل لفظ الجلالة ، فالآية من المتشابه اللفظي.

(٢) يعني المجاز العقلي في جعل النهار مبصراً بنفسه.

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل : جار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، انتشارات افتاب ـ طهران ، د.ت: ٤٣٤/٣.

وقد يعدل الاستعمال القرآني عن أسلوب العطف إلى الاستئناف لتحصين المعنى، وهذا ما نلحظه مثلاً في قوله تعالى:﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٤٠] إذ لم تُعطف (كلمةُ الله) على ما سبقها، حتى لا تكون معمولة للفعل (جعل)، وذلك «لما يُشعر به الجعل من إحداث الحالة»(١)، فكلمة الله هي العليا بنفسها من غير جعل .

لقد منح هذا التغاير جملة (وكلمةُ الله هي العليا) زخماً تعبيرياً قوياً، إذ عُدل بها الى الاستئناف، الذي منحها قوة وثبوتا، إذ أصبحت الجملة اسمية، ولو عُطفت لكانت فعلية تدل على التجدد والحدوث، وكذلك سوّغ هذا الاستئناف وضع الاسم الظاهر موضع المضمر، فلو عُطفت لقيل في غير القرآن الكريم (وكلمته)، ولكن التصريح بلفظ الجلالة منح الجملة قوة تعبيرية مفيداً من الشحنة العاطفية والنفسية التي يضفيها لفظ الجلالة على نفس المتلقي، فضلاً عن أن استعمال ضمير الفصل (هي) أفاد القصر ، فلا علو في الحقيقة إلاّ لكلمة الله أبداً.

ويمكننا أن نلحظ التغاير أيضاً في قوله تعالى في وصف اليهود من أهل الكتاب : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران :١١١] إذ لم تُعطف جملة (لا يُنصرون) على جواب الشرط ، إذ لو عُطفت لكان الفعل مجزوماً ، بل عُطفت على الشرط وجزائه معاً، وذلك لأنه «لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار، وحين رَفَعَ كان نفي النصر وعداً مطلقاً»(٢)، وفي هذا تحصين للمعنى بإثبات البشارة للمؤمنين، فليست هزيمة اليهود مقصورة على معركة معينة ، بل إنهم كلّما قاتلوا المؤمنين هُزموا، وخذلهم الله بسلبهم النصر ولا

(١) التحرير والتنوير : ١٠٣/١٠.

(٢) التفسير الكبير : ١٨٢/٨.

يحتجنّ أحدٌ بالواقع المشهود، إذ عُكس الأمر، لأنا نقول: هات مؤمنين كالذين خوطبوا بهذه الآية ، وخذ نصراً من الله لا يضاهيه نصر.

وختاماً نقول : إننا إزاء موضوع نحوي ــ دلالي فريد، له مكانته في الدرس النحوي العربي التراثي، ولكنه لم يلقَ الاهتمام المطلوب من لدن المعاصرين؛ ولعل توزّع الموضوع بين كتب النحو والبلاغة واللغة والتفسير حال دون تبريزه، وآن لهذا الموضوع ــ حسب وجهة نظرنا ــ أن يأخذ مكانه المرموق في مباحث دراسة المعنى . ومن الله سبحانه وتعالى التوفيق .

The hedging effect of the quranic sentence structure

Asst. Prof. D.r Tallal H.A. Al- Tobachi

Abstract

The essence of communication between the addresser and the addresser relies on understanding the meaning of linguistic message . Meaning may be prone to ambiguity and misunderstanding . In this case , language has its own means to safeguard meaning against such phenomena.
The research aims at investigating some aspects of this topic in order to reveal the close connectivity between syntax and semantics . So the research studies : the methods of ensuring meaning clarification , and their role in the structure of the Quranic sentenece Special attention is given to intonation , context , and intensification.
The research then tackles some aspects of avoiding ambiguity in the Quranic sentence . These aspects include the shift from one mode to another , using noun in place of pronoun , foregrounding and back grounding , expanding without affecting the structure of the sentence and the structural and stylistic changes.